

المجلد ٤
٣
طبع

مجلة

كلية الآداب



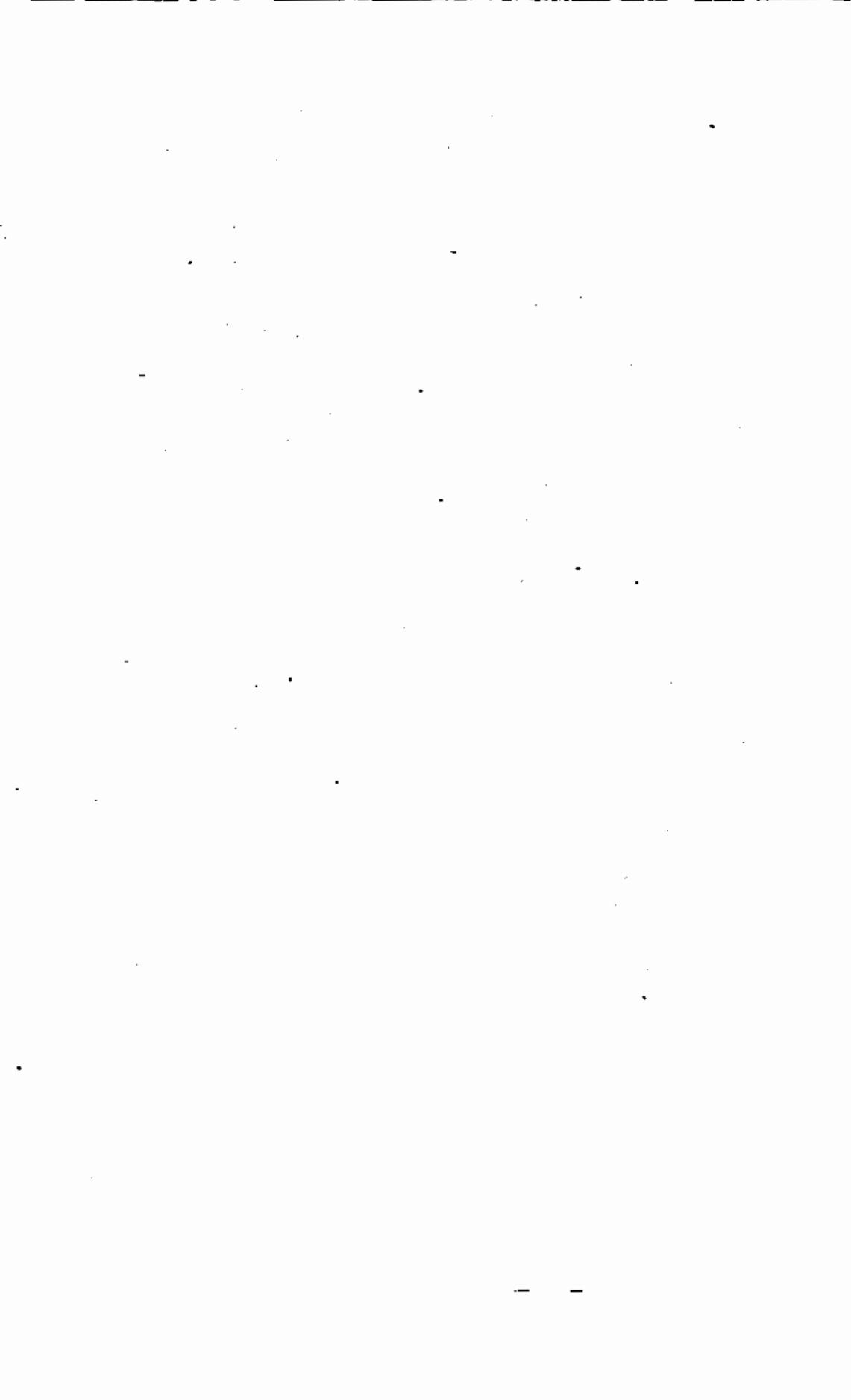
المجلد الخامس والعشرون

١٩٧١

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطبي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية
إلى كلية الآداب

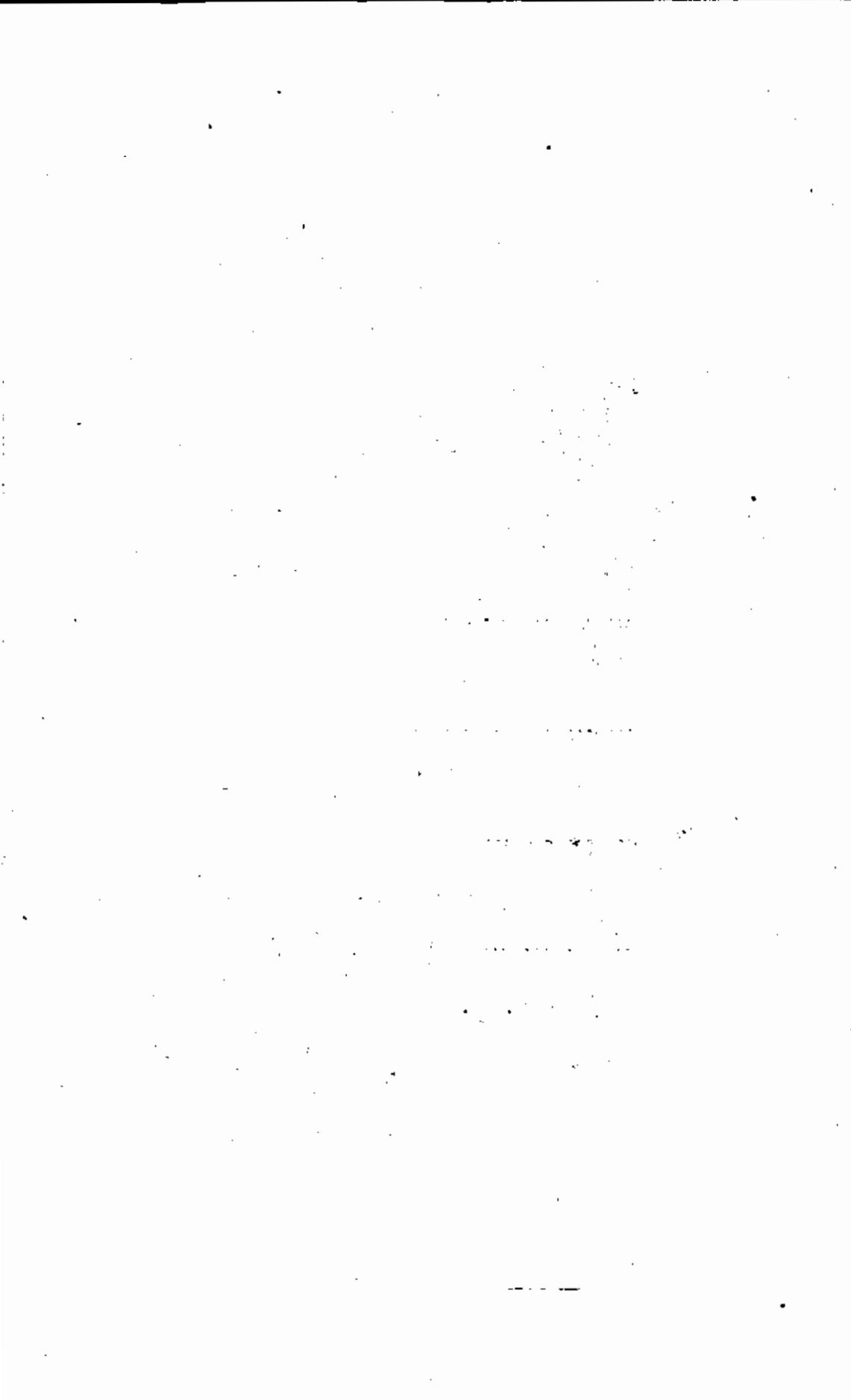
مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٧٥



فہم — رس

صفحہ	
	رأى فى نشأة الشرق العربى
۱	الدكتور سعيد حسين منصور
	استغلال الأرض فى مركز رشيد
۳۳	للدكتور محمد خميس الزوكه
	العامل الجغرافى وأثره فى نشأة المدن فى أفغانستان
۷۵	للدكتور عطيات عبد القادر حمدى
	الأنموذج فى بحث الاستعارة « تأليف : محى الدين الكافيجى »
۱۲۱	دراسة وتحقیق للدكتور عثمان موانى
	الملاح الجغرافية للصحراء الغربية « فى ج . ع . م »
۱۸۳	للدكتور حسن أحمد أبو العينين



رأى فى نشأة النثر العربى

للدكتور سعيد حسين منصور

يعرض هذا البحث لموضوع نشأة النثر الفنى فى الأدب العربى ، وهو الموضوع الذى شغل كثيراً من الباحثين ، غير أن أحداً منهم لم يدل فيه بأراء كثيرة مختلفة كما فعل الدكتور طه حسين فى عدد من بحوثه وكتاباتة . لذلك يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على نشأة النثر العربى من خلال تتبع الآراء المختلفة للدكتور طه حسين وتحليلها ومناقشتها .

- ١ -

لعل أول رأى للدكتور طه حسين فى الموضوع هو الذى عرض له فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) ، وكان قبل تناوله قد أراد أن يغير من نظرة القدماء وأنصار القديم كما يقول ، والتي تنص على أن النثر ظهر عند العرب قبل الشعر وكان أغزر منه مادة ، وإن كان أسوأ حظاً منه لأننا ضاع قبل أن يتمكنوا من تدوينه ، ولم يسهل عليهم حفظه بالرواية كما سهل عليهم حفظ الشعر وروايته . وبذلك يؤكد الدكتور طه حسين على أن الشعر أسبق فى الوجود من النثر الذى «لا يظهر ولا يقوى عادة إلا حين تظهر فى الجماعة وتقوى هذه الملكة المفكرة التى نسميها العقل وحين تظهر وتشتيع هذه الظاهرة الاجتماعية التى نسميها الكتابة» (١) .

وإذ يثبت الكاتب أسبقية ظهور الشعر على النثر يتقبل بعد ذلك إلى نشأة النثر العربى ، ويقسم العرب إزاء ذلك إلى عرب الشمال وعرب الجنوب ، ثم ينفى ما ينسب إلى عرب الجنوب من نثر جاهلى لأنهم لم يكن لهم علم بلغة

(١) طه حسين - فى الأدب الجاهلى - القاهرة - الطبقة الثالثة - ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م
ص ٣٤٨ ، وراجع كذلك - حافظ وشوق - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٥٣ م ص ٦٥ .

قريش التي وصلنا نثرهم بها في حين كان لهم لغة أخرى عرفت لنا ووصلتنا نصوص منها . وأما عرب الشمال فالكاتب كذلك يرفض ما ينسب إليهم من نثر ، يرفض ذلك فيما يخص ربيعة والمضريين جميعاً لأنه يرى أن البحث العلمي يقتضى ألا يعتمد على الرواية وحدها للتأكد من صحة نسبة هذا النثر إلى هؤلاء . (١) وهنا نصل إلى السؤال الذي نريده : هل نخرج من ذلك كله برفض فكرة نشأة النثر العربي في الجاهلية ؟

لا يرفض الدكتور طه حسين هذه الفكرة ، ويستدرك بعد هذه المقدمات فيقول : «ومع ذلك فكل شيء في تاريخ الأدب العربي يدل على أن قد كان للمضريين نثراً ، بل يدل على أن قد كان قبل الإسلام نثر وصل إلى حد من الرقي لا بأس به .. فقد كان لهم حظ لا بأس به من الحضارة في مكة والطائف والمدينة ، وكانوا يتخذون الكتابة في أغراضهم التجارية والاقتصادية ، وكانوا على حظ غير قليل من الاتصال باليهود والنصارى ومجوس الفرس» . إذن فقد توافر الشرطان اللذان وضعهما الكاتب أساساً لظهور النثر عند الجاهلية ، ولذلك يقول : «فكان من المعقول أن يدعوهم هذا كله إلى التفكير والروية ، ثم إلى الكتابة واستحداث النثر . وكانوا على حظ من العلم والمعرفة بأخبار الأولين وأحوال الأمم الأخرى ، وكان لهم ألوان أخرى من الفنون كالنجوم والطب وما إلى ذلك . وكل ذلك يكفي ليكون لهم نثر ما . فنحن حين نرفض ما يضاف إليهم من النثر لا نزعم أنهم قد جهلوا النثر جهلاً تاماً ولم يعرفوه إلا بعد الإسلام ، وإنما نزعم أن قد كان لهم نثر لم يصل إلينا منه شيء بطريقة علمية قاطعة أو مرجحة .. وكل ما يمكن أن نستخلصه من هذا النثر الذي يضاف إلى الجاهليين إنما هو شيء واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلاً أو كثيراً تقليد ما كان للعرب في جاهليتهم من نثر ، فحفظ لنا صورة ما من هذا النثر الجاهلي دون أن يحفظ لنا نصاً من نصوصه» (٢) .

(١) في الأدب الجاهل - ص ٣٥١ .

(٢) في الأدب الجاهل - ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

النثر إذن عند الدكتور طه حسين قد نشأ في العصر الجاهلي ، والعرب قبل الاسلام في رأيه قد توصلوا إلى نوع من الرقي والمعرفة يستلزم ظهور النثر عندهم ، خاصة أنهم قد عرفوا الكتابة التي وإن كانوا قد استعملوها في شئون التجارة إلا أن هذا لا يمنع من أن يدون بها نثرهم ، ثم ضاعت نصوص هذا النثر ولم يصلنا شيء منها . ويرى الكاتب أن هذا النثر الأدبي شهد نشأة السجع «الذي كان يلتزم في بعض الخطابات الفنية وفي بعض الرسائل الفنية» (١) التي يبدو في أسلوبها شيء من سيطرة الأسلوب الشعري على النثر ، فهو نثر مسجوع لم يتقيد بالوزن وإن كان قد تقيد بالقافية . وبذلك يرى الدكتور طه حسين أن السجع قد أكسب أسلوب النثر وأسلوب الرسائل شيئاً من الفنية ، وأما الخصائص الأخرى لهذا الأسلوب أو سنن الجاهليين في نثرهم فلا حيلة لنا إلى معرفتها من النثر الجاهلي نفسه ، وإنما «نلمحها في القرآن وتلمحها في أحاديث النبي وفي أحاديث الخلفاء وخطبهم» (٢).

نستطيع أن نستخلص من ذلك كما ذكرنا صورة بدت أمام الكاتب للنثر العربي قبل الاسلام تتضح في هذه الخطابات والرسائل الفنية التي تمثل لونا من النثر العربي نشأ في الجاهلية . ولكن ألوان النثر الجاهلي في رأى الكاتب لا تكاد تعدى ذلك ، فهو لا يرضى عن الأمثال لتمثل فناً من فنون النثر الجاهلي لأنها «أدب شعبي مضطرب متطور ، يصح أن يؤخذ مقياساً لدرس اللغة ، ومقياساً لدرس الجملة القصيرة كيف تكون ومقياساً بنوع خاص لعبث الشعوب بالألفاظ والمعاني ، ولكن هذا كله شيء والنثر الفني شيء آخر» (٣) .

ولم يكتف الدكتور طه حسين بإسقاط الأمثال من ألوان النثر الجاهلي وإنما تعدى ذلك أيضاً إلى الخطابة ، لأن «الخطابة العربية فن إسلامي خالص»

(١) المرجع السابق ص ٣٥٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

وحياة العرب السياسية والدينية والاجتماعية لم تكن تدعو إلى ازدهار الخطابة الجاهلية ، فقد كانت بعيدة عن الحياة المدنية المعقدة كما كان ينقصها الاستقرار والاطمئنان ، وليس معنى هذا أن الكاتب ينكر وجود الخطباء الجاهليين ، ولكنه يرى «أن خطابهم لم تكن شيئاً ذا غناء» ، «فلا تصدق إذن أن قد كانت للعرب في جاهليتهم خطابة ممتازة ، إنما استحدثت الخطابة في الاسلام ، استحدثها النبي والخلفاء ، وقويت حين نجت الحصومة السياسية الحزبية عند المسلمين» (١) .

وكان الدكتور طه حسين يرى أن النثر الفني لم يظهر بفنونه المختلفة دفعة واحدة في الجاهلية ، فإذا كان النثر ينشعب إلى فرعين كبيرين ، يختص الأول بالكتابة والثاني بالخطابة (٢) ، فإن الجاهلية لم تشهد عنده غير نشأة الفرع الأول المتمثل في بعض الرسائل الفنية ، في حين أن الفرع الثاني وهو الخطابة لم تهيأ له أسباب استحداثه إلا بعد الاسلام .

ولكن ، لعل ما يتناسب مع الاعتقاد السائد عن اعتماد العرب على الرواية وقلة التدوين في هذا العصر وما بعده أن يكون للخطابة نشاط ، ويكون لها ازدهار أكثر من الكتابة ، أو على أقل تقدير أن يكون ظهورها ونشأتها سابقاً على نشأة النثر الفني المدون . وليس من المعقول أن يعجز النزاع الشديد والحصومة القوية التي طبعت علاقة القبائل بعضها ببعض عن استحداث

(١) المرجع السابق ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

(٢) رأى الدكتور طه حسين في موضع آخر أن يقسم الكلام إلى ثلاثة أقسام ، فيقول : « . . تقسيم الكلام إلى شعر ونثر ليس يكفي بل يجب أن يقسم الكلام إلى شعر وخطابة وكتابة ، وهي التي تعودنا أن ندر عنها أحياناً بالنثر الفني في الكتب والرسائل » (من حديث الشعر والنثر - القاهرة - ١٩٤٣ - ص ٤١ - ٤٢) . فهو بذلك يفصل بين الخطابة والنثر الفني متبراً كلا منهما قسماً قائماً بذاته من أقسام الأدب ، ولهذا سبب يرجع إلى رأى آخر سنعرفه بعد قليل يتصل أيضاً بنشأة النثر الفني . والدكتور طه حسين إذ يتفق في هذا التقسيم مع رأى المستشرق الفرنسي مرسيه يريد أن يخالف القدماء والمحدثين في تقسيمهم الكلام إلى شعر ونثر ، أو منظوم ومنثور (من حديث الشعر والنثر ص ٢١) - وراجع (زكي مبارك - النثر الفني في القرن الرابع - القاهرة - الجزء الأول ص ٢٤ - ٢٥) .

الخطابة وإطلاق أسنة الخطباء في الجاهلية بفنون من القول البليغ المؤثر ، ولا يعقل أن تقف طبيعة الأخذ بالتأثر عند العربي عن إثارة خطب الحث على الحرب والقتال ، كما لا يعقل أن تكون الحياة كلها حرباً وفتلاً دون أن يبعث ذلك على خطب الصلح وإصلاح ذات البين ، ولا يعقل أيضاً ألا يوجد في هذا الجو الصاحب خطباء قادرين على المفاخرة والمنافرة في مجتمع يميل إلى الغلبة والصراع . وأما خطب الوفود والمحافل – وإن كان من الممكن الشك في نصوصها التي وصلت إلينا فهي بلا شك تدل على بعض موضوعات الخطابة يتفق مع طبيعة الحياة الجاهلية . وقد رأى الكاتب كما ذكرنا من قبل أن النثر الذي يضاف إلى الجاهليين قد حفظ لنا صورة ما من النثر الجاهلي دون أن تحفظ لنا نصاً من نصوصه ، وهذا صحيح ولكنه إن صح أن ينطبق على الكتابة الفنية فهو أشد انطباقاً على الخطابة . والجدير بالذكر أن الكاتب يفرق بين الحوار أو الجدل في جانب ، والخطابة في جانب آخر ، ويرى أن الحياة القبلية تدعو إلى الحرار والجدل ولكنها لا تدعو إلى الخطابة . (١) ولكن كيف يحول الحوار بينهم وبين أن يقف أحدهم خطيباً للتأثير في السامعين ، فيرد عليه الخصم بخطبة أخرى قد تقصر وقد تطول ، وتكون أقوى أو لا تكون (٢) . وأما الحواضر العربية كالطائف والمدينة ومكة – كما عرض الدكتور طه حسين من قبل – فقد كان لها حظ لا بأس به من الحضارة واتصال باليهود والنصارى ومجوس

(١) في الأدب الجاهل ص ٣٥٥ .

(٢) ينسب إلى ابن المقفع في طول بعض الخطب الجاهلية قوله : « الإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السامعين وفي إصلاح ذات البين فالأكثر في غير غطل والإطالة في غير إملال » . (البيان والتبيين – القاهرة – ١٩٦٨/١٣٨٨ – الجزء الأول ص ١١٦) . وينسب إلى قيس بن خازجة بن سنان من خطباء الجاهلية قوله : « عندي قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لون تطلع الشمس إلى أن تقرب أمر فيها بالتواصل وأنهى فيها عن التقاطع » . ويقول الجاحظ : « قالوا : فخطب يوماً إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا معنى » . (البيان – الجزء الأول ص ١١٧) . ولعل هذه الخطبة هي التي شتمت العنراء ، (البيان – الجزء الأول ص ٣٤٨) ، وضرب بها الجاحظ المثل في الطول (الحيوان – القاهرة ١٩٦٢ – ١٩٤٣ – الجزء السادس ص ٢٦١) .

الفرس ومعرفة ببعض العلوم وأخبار الأمم . وإذا كان الدكتور طه حسين قد رأى أن « كل الحياة الاجتماعية للعرب قبل الاسلام لم تكن - وإن غضب أنصار القديم - تدعو إلى خطابة قوية متميزة ، فالحواضر المضرية كانت حواضر تجارة ومال واقتصاد ، ولم يكن للحياة السياسية فيها خطر يذكر ، ولم تكن لهم حياة دينية عملية قوية تحتاج إلى إلقاء الخطب كما تعود النصارى والمسلمون » (١). أقول إذا كان الدكتور طه حسين قد رأى ذلك من أجل أن يثبت أن الخطابة لا تنشأ إلا إذا توافرت لها « الحياة المدنية المعقدة » ، فقد سبق له أن رأى وهو في معرض تصوير الحياة الجاهلية من خلال تمثيل القرآن لواقعها أن « القرآن إذن أصدق تمثيلاً للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي . ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها ، وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي ، يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدل والحصام أنفق القرآن في جهادها حظاً عظيماً .. وإذا كان العرب أصحاب علم ودين ، وأصحاب ثروة وقوة وبأس ، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها مؤثرة فيها ، وأصحاب باقتصاد داخلي وخارجي معقد ، فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجية » (١) .

وهكذا تبدو لنا في هذين النصين صورتان مختلفتان عن البيئة الجاهلية ، ولكن الواقع أن طبيعة الحياة العربية الجاهلية بصورها القبلية وقسطها من الحضارة ملائمة كل الملاءمة لنشأة الخطابة ، وإذا صح أن يكون للعرب في الجاهلية معلقات ومذاهب دون أن يكون لهم كتابة فنية فلا يعقل أن يكون لهم هذا الشعر الناصح المتكامل دون أن يكون لهم خطابة ، ولا يعقل أن يكون للقبيلة شاعرها الذي يعدد مناقبها ويهجو أعداءها دون أن يكون فيها السيد الخطيب الذي يحث قومه للذود عنها وينقد على شيوخ القبائل وملوك الإمارات لعرض قضاياها والتحدث عنها

(١) في الأدب الجاهل ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٧١ - ٧٢ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

في أمة عرفت عنها الفصاحة والبلاغة وجاءها القرآن بمعجزة تفهم فصحاءها
وتعجز أمراء البيان فيها .

يقول المرزوقي في معرض التدليل على تأخر المنظوم عن رتبة المنثور
عند العرب : « إن ملوكهم قبل الاسلام وبعده كانوا يتبجحون
بالخطابة والافتنان فيها ، ويعدونها أكل أسباب الرياسة ، وأفضل آلات
الزعامة . فاذا وقف أحدهم بين الساطين لحصول تنافر أو تضاعن أو تظالم
أو تشاجر ، فأحسن الاقتضاب عند البداهة ، وأنجع في الاسباب
وقت الاطالة ، أو اعتلى في ذروة منبر فتصرف في ضروب من تخشين
القول وتليينه ، داعياً إلى طاعة ، أو مستصلاً لرعية ، أو غير ذلك مما تدعو
الحاجة إليه ، كان ذلك أبلغ عندهم من انفاق مال عظيم ، وتجهيز جيش
كبير» (١) .

إن قول المرزوقي يصور لنا أدق تصوير وجوه رقى الخطابة الجاهلية
كما يصور العناصر الفنية فيها ، وأثرها العميق في المجتمع الجاهلي الذي كان
يفوق أثر المال والسلاح ، بما لا يدع مجالاً للشك في أهمية هذا الفن القولي
عند العرب وقدره من ناحية ، وازدهاره وتأثيره في توجيه الحياة الجاهلية
من ناحية أخرى . وللمستشرق كارلو نالينو رأي يلقي الضوء على جوانب
أخرى من ارتفاع شأن الخطابة في العصر الجاهلي ، يقول :

«أما فن الخطابة فله عند العرب مقام عال جداً ، فلو جمعنا الأبيات
القديمية التي يحمد فيها خطيب للأنا بضعة صحائف . ولذلك أسباب مرتبطة
بنظامهم السياسي المبني على الحرية ونوع من مجلس الشورى . فكان رجال
كل قوم من أهل الوبر يباحثون أهم أمور القوم في مجلسهم كما كان كبار
أهل مكة يتفاوضون فيها في دار الندوة المنسوب تأسيسها إلى قصي بن كلاب
فكان للخطيب البليغ شأن عظيم . ومن الحري بالذكر أن الألفاظ التي كان

(١) أبوعل أحمد المرزوقي - شرح ديوان الحماسة - القاهرة - ١٣٧١ / ٨ - ١٩٥١م -

الجزء الأول ص ١٦ .

العرب يعبرون بها عن متولى حكم قوم من أقوامهم، أعنى السيد والأمير عند عرب الحجاز، والقيل في أنحاء اليمن، إذا بحثنا عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات السامية وجدنا أن معناها الأصلي إنما كان القائل أو المتكلم. ثم أثرت في ارتقاء فن الخطابة سياسة العرب الخارجية، أعنى العلاقات بين قوم وقوم أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة والفرس وغانان، فكان حينئذ الخطيب وكيل جميع قبيلته يخاطب باسمها في المواسم والوفود للمفاخرة والمشاجرة والدفاع عن حقوق قومه. فوصف أوس بن حجر منصب الخطيب في داخل قومه وخارجه حين قال وهو يرثى أبا دليجة فضالة بن كعدة :

أبا دليجة من يكفى العشرة إذ أسوا من الخطب في لبس ولبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوى أيد وأفضال

ولهم عوائد خاصة عند إلقاء الخطب الاحتفالية، وعند أهل المدن والحجازية في أواخر القرن السادس للمسيح نوع ثان من الخطابة جار في أمور الدين والأخلاق والزهد، وهو نوع اشتهر به زيد بن عمرو بن نفيل من أهل مكة، وقس بن ساعدة الإيادي النصراني أسقف مدينة نجران الذي ضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة ..»

من ذلك تتضح لنا عوامل ارتقاء فن الخطابة في الجاهلية، كما تتضح صورة الحياة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام، تلك الحياة التي ساعدت على ازدهار ألوان من الخطابة متصلة بشئونهم وعلاقاتهم المتنوعة مع غيرهم من الجماعات الأخرى. ولعل الخطأ في الحكم على الخطابة الجاهلية ونفى وجودها يكمن في أن ننظر إلى الخطابة نظرة شاملة لجميع أنواعها أو فروعها وموضوعاتها، فقد تتوافر الظروف لنشأة نوع معين من الخطابة دون أن تساعد هذه الظروف نفسها على إحداث أنواع أخرى، فإذا كانت الحياة الدينية عند عرب الجاهلية لم تساعد على ظهور الخطابة الدينية بالشكل الذي

ظهرت به في الاسلام ، فليس ذلك يعنى انعدام ألوان أخرى من الخطابة-
 الاجتماعية تعالج مشكلات المجتمع الجاهلي الذي اختلطت فيه ألوان من
 العقائد والديانات . وإذا كانت الحياة السياسية عند العرب لم تعرف الحزبية-
 السياسية لينشق عنها خطابة سياسية، فإن انطباع الحياة الاجتماعية للعرب
 بطابع العصبية القبلية كفيل أن ينشئ خطابة تنعكس فيها صور العصبية
 المختلفة المتطاحنة . بل إن الخطابة السياسية الحزبية التي نشأت بعد الاسلام
 وازدهرت فيها خطابة للأمويين أو خطابة للزبيريين والحوارج والهاشميين
 ليست مقطوعة الصلة بالعصبية الجاهلية . فالعصبية القبلية لم تندثر بظهور
 الاسلام وإنما ارتدت على نحو آخر وظهر ارتدادها أو امتدادها في ظهور
 بعض الأحزاب التي تطورت مع تطور الحياة الاسلامية ، فكانت لها
 مبادئها السياسية المتبلورة ، وكانت لها آراؤها التي تتعارض مع الأحزاب
 الأخرى، ولم تكن البواعث التي أنشأتها ومزقت أوصالها بعيدة عن الأسباب
 القبلية التي كانت تفرق بين بعض العصبية الجاهلية وبعضها الآخر .
 ثم إذا كان الاسلام أيضاً قد أنشأ لوناً من ألوان الخطابة يتمثل
 في موضوع الجهاد في سبيل الله والحث على قتال المشركين ، فهل يبعد
 أن يكون ذلك في بعض صورته امتداداً لخطابة الجاهليين في الحث على الدفاع
 عن شرف القبيلة ومكانتها ، ثم اتخذت هذه الخطابة شكلاً آخر لا يختلف
 عن ذلك كثيراً حين تنازعت الأحزاب السياسية الاسلامية فيما بينها
 وشغلت خطابها أكثر ما شغلت بحث أنصار كل جماعة على قتال الفئة
 الأخرى ، ولم يكن هذا القتال عند الكثير من الأحزاب الا صورة من-
 صور الجهاد في سبيل الله .

عرف الجاهليون إذن ألواناً من الخطابة ، ولا ينبغي أن تكون الأسباب
 التي منعت من ظهور لون من هذه الألوان أسباباً جامعة تحول دون ظهور
 فن الخطابة عامة أو تأخر نشأته في الجاهلية إلى صدر الاسلام كما رأى
 الدكتور طه حسين . إن نقص لون من ألوان الخطابة لا ينبغي أن يدفع
 للحكم على الخطابة بشكل مطلق ، فظروف العرب قبل الاسلام لا تحول

بين الخطابة وبين أن تكون. فثأ جاهلياً، ولكن هذا الفن الجاهلي تشعب واتسعت ألوانه وتعددت موضوعاته مع مجيء الاسلام وظهور الخلافة والخلاف عليها وتطور حياة المسلمين واتساعها، ثم اكتمل ازدهاره وبلغ غاية الرقي كلما تشعبت سبل الحياة في الدولة الاسلامية وترامت أطرافها وانقسمت هذه الأطراف على نفسها وتنازعت فيها الآراء السياسية وتباعدت الأفكار الدينية.

- ٢٠ -

عاد الدكتور طه حسين إلى الحديث مرة أخرى عن نشأة النثر العربي في محاضراته عن النثر في القرنين الثاني والثالث الهجري التي وردت في كتابه «من حديث الشعر والنثر». ولكن آراءه هنا تختلف كل الاختلاف عما رآه في «الأدب الجاهلي»، فالجاهليون الذين كان لهم في «الأدب الجاهلي» قسط ما من الحضارة (يدل على أن قد كان قبل الاسلام نثر وصل إلى حد من الرقي لا بأس به) و(كان من المعقول أن يدعوهم هذا كله إلى التفكير والروية ثم إلى الكتابة واستحداث النثر) و(حين نرفض ما يضاف إليهم من النثر لا نزعهم أنهم قد جهلوا النثر جهلاً تاماً ولم يعرفوه إلا بعد الاسلام وإنما نزعهم أن قد كان لهم نثر لم يصل إلينا منه شيء بطريقة علمية قاطعة أو مرجحة) و (كان لهم نوعان من النثر إذا، أحدهما فني لم يتحلل من قيود الشعر التحلل المطلق، والآخر عادي اعتمد على لغة التخاطب أكثر من اعتماده على أي شيء آخر) و (نشأ فيها نوع من النثر لم يتحلل من قيود الشعر كلها، وإنما تحلل منها بعض الشيء، لم يلتزم فيه الوزن وإنما التزمت فيه القافية التزاماً ما، فنشأ السجع الذي كان يلتزم في بعض الخطابات الفنية وفي بعض الرسائل الفنية أيضاً) .. هؤلاء الجاهليون قد عدل الدكتور طه حسين رأيه فيهم حين مر على الموضوع نفسه عبر الحديث إلى نثر القرنين الثاني والثالث الهجري كما قلت. والحديث هنا بطبيعة الحال عن النثر الفني وحده، إذ لم يفت الكاتب كما لاحظنا أن يفرق بين النثر

العادى والنثر الفنى ليقول إن النوعين قد وجدا ، وإن النوع الفنى منهما لم يتحلل من قيود الشعر ، وإن منه الخطابات والرسائل الفنية . فالأمر إذن واضح فيما يختص برأيه هذا ، ولكن هذا الرأى قد عدل عنه دون أن يشير اليه .
فى كتابه «من حديث الشعر والنثر» على النحو التالى إذ يقول :

«الواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال - مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلى وعشاقه - أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فنى» . ويقول : « وإذن فالعصر الجاهلى لم يكن له نثر بالمعنى الذى حددته» (١) . والمعنى المقصود هنا هو النثر الفنى . ويقول : « وإذن فالنثر العربى الذى ليس لغة التخاطب ، ولا الأحايث العادية ، والذى لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هى عاطفة أو شعور ، بل من حيث هى صورة عامة يظهر فيها نتيجة التشكيب ، هذا النثر أثر من آثار الحياة الاسلامية الجديدة ، ظهر فى الاسلام ، ولم يكن موجوداً» (٢) . ثم نعرف بعد ذلك أن النثر لم ينشأ لافى العصر الجاهلى ، ولا فى القرن الأول للهجرة حين يقول : «أول القرن الثانى للهجرة هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذى شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النثر الفنى» . (٣) وعلى هذا فإن «نشأة النثر العربى لم تكن بدعاً فى الأمم» (٤) وإنما جاءت نشأته كما يرى طه حسين «ملائمة كل الملاءمة ومطابقة كل المطابقة لما تألفه فى نشأة النثر الذى كان عند الأمم التى لها أدب راق» (٥) . والأمثلة على ذلك تتضح فى نشأة النثر اليونانى ونشأة النثر الفنى عند الفرنسيين .

وإذا وقفنا هنا لتساءل : إذا كان النثر الفنى قد تأخر لينشأ بعد القرن-

(١) من حديث الشعر والنثر - القاهرة - ١٩٥٣ ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٨ .

الأول للهجرة ، فمأذا يكون القول في القرآن وما يمثله من نثر فني ؟ هنا نجد الدكتور طه حسين يلجأ إلى تقسيم جديد للأدب يخرج فيه القرآن من مجال النثر ، فيقول : «ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً إنما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم .. فلنستطيع أن نضع نقول إنه نثر ، كما نصّ هو على أنه ليس شعراً .. وإذن فن الحق أن نضع القرآن في مقامه الخاص الذي لا يصح أن يقاس به شيء آخر ، وأن نبحث عن النثر العربي» . (١) والبحث عن النثر العربي بطبيعة الحال لن يخرج بشيء في دائرة القرن الأول الهجري وعلى طولته وامتداده ، وأما القرآن فقد فرغ منه الكاتب على هذا النحو بعزله عن مجال الشعر والنثر كليهما ، ولعل هذا التقسيم الجديد مرتبط بتقسيم آخر سبق أن أشرنا إليه حين عرفنا أن الكلام يقسمه الكاتب إلى ثلاثة أقسام : شعر وخطابة ونثر فني ، فيفصل النثر عن الخطابة . والهدف من هذا التقسيم هو نفس الهدف الذي أوجأ الكاتب إلى قوله بنظرية الشعر والنثر والقرآن . فالنثر الفني باعتباره قسماً مستقلاً من أقسام الأدب منفصلاً عن الخطابة يمكن الحكم عليه الآن حكماً مستقلاً يؤخر نشأة النثر إلى القرن الثاني ، فلا تنطبق هذه النشأة على الخطابة التي سيقدر الدكتور طه حسين كما سنرى أن نشأتها كانت قبل ذلك ، ولا يحتاج إزاء هذا إلى استثنائها من حكمه على النثر الفني .

وهكذا تأخرت نشأة النثر العربي إلى القرن الثاني الهجري ، والأمر الذي لا شك فيه أن هذه النشأة لا تعني غير النشأة ، فهي لا تعني التطور أو الارتقاء أو القوة والانتعاش والازدهار ، وفرق كبير بين أن ينشأ النثر الفني في الجاهلية وبين أن يتأخر لينشأ في القرن الثاني (٢) . والمعروف

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢) يتفق الدكتور طه حسين في هذا الرأي الجديد مع رأي سبق أن رأه المستشرق الفرنسي

«مرسيه» لا فيما يتعلق بأقسام الكلام فحسب - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - بل بتوقيت نشأة النثر العربي كذلك ، وقد نشر الأستاذ «مرسيه» هذه الآراء في عام ١٩٢٧ ،

(Marçais, Origines de la prose littéraire arabe, Sevre Africaine, Nos. 330, 331, 1^{er} et 2^e trimestres, 1927)

- وقد ردد الأستاذ «جيب» هذا الرأي في مقال نشره في مجلة (الأدب والفن) بلندن

عام ١٩٤٣ وأعاد نشره في كتابه

Studies on the civilization of Islam, Boston, 1962, p. 237.

أن القرن الثاني في ميدان النثر العربي مقترن باسم عبد الحميد وابن المقفع ، ولكن الدكتور طه حسين إذ يرى أن القرن الثاني شهد نشأة النثر الفني لا يرى أن هذه النشأة قد أنشأها كاتب بعينه وأنه نشأ نشأة عربية طبيعية فيقول :

«في هذا العصر الذي أحدثكم عنه - القرن الثاني للهجرة - ظهر كاتبان يعتقد العرب والمستشرقون أنهما هما اللذان أسسا النثر العربي . وفي هذا كثير من المبالغة ، فلم يؤسس النثر العربي كاتب بعينه ، وإنما نشأ نشأة طبيعية ملائمة للشعب العربي الاسلامي » (١). ويقول : «هذا النثر أثر من آثار الحياة الاسلامية الجديدة ، ظهر في الاسلام ولم يكن موجوداً . هذه الأسباب التي دعت إلى وجوده أسباب طبيعية ، لأن أمة لم تكن أعارت العرب النثر ، بل هي الظروف التي أوجدته . وهو فن دعت إليه حاجة الحياة العربية ، ولذلك يجب أن نزع من نفوسنا أن العرب استعارت النثر من غيرها من الأمم . فالذين يزعمون أن الأمة العربية قد أخذت نثرها عن الفرس أو اليونان مسرفون . ولكن ليس معنى هذا أن النثر نشأ بعيداً عن هؤلاء ، بل كان عربي النشأة ، ولكنه تأثر بهؤلاء ، وتطور بفضل اتصال العرب بتلك الأمم» (٢) .

ليس من شك في أن النثر العربي قد تأثر بهؤلاء ، وتطور بفضل اتصال العرب بالفرس واليونان ، فهذا كله صحيح ، ولكن التأثير والتطور يأتي دورهما في المراحل التي تلي مرحلة النشأة . وقد رأى الدكتور طه حسين أن النثر العربي قد نشأ نشأة عربية وكان أثراً من آثار الحياة الاسلامية الجديدة ، فاذا كان ذلك كذلك ، فلماذا تأخرت هذه النشأة - وهي عربية إسلامية - إلى القرن الثاني ، في حين أن الحياة العربية الاسلامية التي أنشأت النثر العربي كانت قد بدأت قبل القرن الثاني بقرن كامل ؟ والقرن الثاني

(١) من حيث الشعر والنثر ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

المجري كما هو معروف لا يقترن بامتزاج العرب بغيرهم من الأمم ، لأن هذا الامتزاج قد حدث قبله ، وإنما يقترن بظهور آثار هذا الامتزاج في جميع نواحي الحياة ، وتبلور مظاهر هذا التأثير في ميدان الأدب والنثر . وعلى ذلك فلا يصح تأخير نشأة النثر العربي إلى القرن الثاني دون أن تكون هذه النشأة مرتبطة بكل الارتباط بأثر الفرس واليونان ، وبذلك لا يمكن أن تكون نشأة عربية خالصة . والدكتور طه حسين يرفض أن يكون ابن المقفع وعبد الحميد هما اللذان أسسا النثر العربي ، ومع ذلك نستطيع أن ندرك أن تفكيره متعلق بالقرن الثاني ونشأة النثر الفنى فيه ، لاشيء إلا لشهود هذا القرن فن ابن المقفع وعبد الحميد . يقول :

«وإنما الكاتبان امتازا امتيازاً ظاهراً في هذا العصر حتى أصبحا رمزاً لهذا النثر الذى ليس هو لغة التخاطب ، ولا اللغة العلمية الطبيعية ، ولا اللغة الفلسفية ، ولا التاريخية ، ولكنه نثر فيه شيء من الفن ، وفيه ميل إلى احداث اللذة عند القارئ فوق العناية بتأدية الفكرة ، هذان الكاتبان هما « ابن المقفع » و« عبد الحميد بن يحيى » (١) . ويقول :

«وربما كان من الحق أن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية في العصر الاسلامى في القرن الثاني للجبهة هو عبد الحميد وابن المقفع » (٢) ويقول : «هذان هما الكاتبان اللذان نستطيع أن نعتبرهما عنواناً للكتابة الفنية» (٣) .

قلنا إنه إذا كانت نشأة النثر العربي في أول القرن الثاني فلا يمكن

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢ - ومن الغريب أن يقول الدكتور طه حسين في مقال له في كتاب (حافظ وشوق ص ٦٨) : « متى بلغ النثر العربي أقصى ما كان يستطيع أن يبلغ من الرقى ؟ في عصر ابن المقفع والملاحظ وأشبههما » . وكان النثر العربي قد نشأ في القرن الثاني ، ويبلغ في الوقت نفسه أقصى ما يستطيع أن يبلغ من الرقى عند ابن المقفع . ولكن لم يرد في مقال الدكتور طه حسين ما نسب إليه الدكتور زكي مبارك من القول بأن « أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل » . (النثر الفنى في القرن الرابع ص ١٠٠ ص ٤٩) .

(٣) من حديث الشعر والنثر ص ٤٩ .

الا أن تكون هذه النشأة متصلة بعلمين بارزين هما عبد الحميد وابن المقفع والحديث عن عبد الحميد وابن المقفع لا يمكن الا أن يكون متصلاً بأثر الثقافة الفارسية واليونانية ، والدكتور طه حسين نفسه يقول في موضع آخر : «لولا المترجمون في العصر العباسي ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ» وعلى ذلك فان نشأة النثر العربي في القرن الثاني وفي عصر عبد الحميد وابن المقفع ليست الا دليلاً على أن النثر العربي لم يكن عربي النشأة . وحديث الدكتور طه حسين عن ثقافة هذين الكاتبين يوضح مدى تأثير الثقافتين الفارسية واليونانية في نثرهما . يقول عن عبد الحميد : «مختلف الناس في أن عبد الحميد فارسي الأصل أو من جنسية أخرى ، ويقول أبو هلال انه كان محسن الفارسية . وعندما أقرأ عبد الحميد وابن المقفع الذي لا خلاف في أنه كان فارسياً ، وأقارن بينهما ، أرجح أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بالثقافة اليونانية ، وربما كان عالماً بلغتها .. ولعبد الحميد خاصة لغوية أو فنية هي التي تحملني على أن أرجح أنه كان شديد الاتصال باليونانية .. فهو إذا كتب أسرف في استعمال الحال . . استعمال الحال على هذا النحو من خصائص اللغة اليونانية ، ومن الأسباب التي يعتمد عليها اليونان في تحديد معانيهم .. هذه الظاهرة عند عبد الحميد تقوى عندي أنه كان شديد الاتصال باليونانية ، ذلك لأن مدارس الأدب اليوناني كانت منبثة في الشرق كله ، في الاسكندرية وغزة وأنطاكية والشام والجزيرة ، وظلت كذلك حتى العصر العباسي ، ولكنها انحصرت في الأديرة حتى ذهب أمرها في القرنين الثالث والرابع للهجرة . فليس غريباً أن يكون عبد الحميد قد اتصل باليونان في مدارسهم بالجزيرة والشام وتعلم اليونانية وأحسنها . يقوى هذا في نفس الرسالة التي كتبها إلى ولي العهد والتي تناول معاني يظهر فيها تأثير الثقافة اليونانية .. والرسالة تنقسم إلى قسمين : القسم الأول نصح من الخليفة لابنه . . ثم إذا فرغ من هذا القسم انتقل إلى نصيحة ولي العهد فيما ينبغي أن يتخذه من تنظيم الجيش ومحاربة العدو . وهو أشبه برسالة في فن الحرب وتنظيم الجيش . وهذا النحو من

الرسائل كان شائعاً في هذا العصر اليوناني الروماني . وبعضه ترجم للعرب . وعندى في هذه الرسالة نص بسيط يدلنى على أن عبد الحميد كان في هذه الرسالة متأثراً لا باليونانية وحدها ، بل بما كان مألوفاً عند اليونان .. ف نظام الجيش هذا ما أشك في أنه متأثر فيه برسائل الحرب عند اليونان ثم رؤية الجيوش اليونانية التي كان العرب يحاربونها دائماً ، ولا سيما أيام مروان . ومن خصائص عبد الحميد أنه يقسم كلامه إلى فصول ، فكل رسالة من رسائله تنقسم إلى أجزاء .. هذا النوع من تقسيم الكلام نوع يوناني من خصائص النثر اليوناني القديم » (١) .

ويعود الدكتور طه حسين ليؤكد هذه الفكرة في موضع آخر من بحثه فيقول في بحث له معروف عن «البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر» :

«وإذا كنا على يقين من أن ابن المقفع فارسي الأصل ، فنحن لا نعرف شيئاً ما عن أصل عبد الحميد بن يحيى ، بيد أننا عندما نقرأ القليل الباقى من منشأته ، لا يسعنا إلا أن نعرف بما (للهلينية) من الأثر البين في هذه المنشآت معنى ومبنى . والحق أن عبد الحميد كان أحد كتاب القرن الثاني الذين فهموا (الفصول) كما يفهمها علماء البيان من اليونان . ونفس بناء جملة يظهر تأثراً واضحاً بالهلينية ، فهو يضع الصفة من الجملة حيث يقتضى المعنى وضعها ولو أغضب النحاة بذلك بعض الشيء » (٢) .

هذه صورة كاملة نعرف منها تصور الدكتور طه حسين لمدى تأثير الثقافة اليونانية في نثر عبد الحميد . والجدير بالذكر أنه يصرح في موضع آخر بما يؤكد أن بداية الكتابة مرتبطة كل الارتباط بالتأثير اليوناني ، فإذا كانت الكتابة قد بدأت بعبد الحميد فكأنها لم تبدأ به إلا لأنه الكاتب

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٢ - ٤٦ .

(٢) نقد النثر - لأبي الفرج قدامة بن جعفر - تمهيد في «البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر - ترجم هذا البحث عبد الحميد العبادى عن الأصل الفرنسى الذى وضعه طه حسين - القاهرة - ١٣٥٧/١٩٣٨ ص ١٠ .

المتأثر بالثقافة اليونانية ، وعلى ذلك تكون الثقافة اليونانية هي التي أطلقت نقطة البدء . ونص كلام الدكتور طه حسين يقول : «ونحن عندما نقول : (بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) ، فنحن نعني كتابة عبد الحميد المتأثرة بالثقافة اليونانية المعتمدة على الترتيب وعلى المنطق ، وكتابة أخرى عيّنت بالفن اللفظي والزخرف أكثر من المعنى» (١) .

ونحن وإن كنا لا ننكر تأثير الثقافة اليونانية في نثر عبد الحميد إلا أننا نرى أن من الممكن البحث عن مظاهر هذا التأثير في غير ما وجدته الدكتور طه حسين من قبل في رسائله . ولكن هذا ليس موضوع بحثنا الآن ، وإنما الذى نريد أن نوضحه هو أنه إذا كان لهذه الثقافة اليونانية عند عبد الحميد مثل هذا الأثر الذى شمل الشكل أو الأسلوب والفكرة والمضمون معاً في نثره . وإذا كانت الكتابة التي بدأت بعبد الحميد ليست إلا الكتابة المتأثرة بالثقافة اليونانية إلى جانب ما يظن من أصل عبد الحميد الفارسي فلا يمكن أن تكون نشأة النثر العربي في عهده - في أول القرن الثاني - نشأة عربية ، لأنها ليست بمعزل عن الجنسية الفارسية ، ولا بمعزل عن مدارس الأدب اليوناني على وجه الخصوص ، تلك التي كانت منبعثة في الشرق كله كما يقول الكاتب . وهذا القول نفسه ينطبق على ابن المقفع الذى لا شك في فارسيتها ولا شك في ثقافته اليونانية أيضاً . وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين :

«ابن المقفع فارسي من غير شك ، وكان أبوه من عمال الحجاج على الحجاج ، وكان مجوسياً . وظل ابن المقفع مجوسياً إلى أول الدولة العباسية ، وكان قد أتقن العربية وثقف بثقافتها . ولا شك أن حظه كان عظيماً من الثقافة اليونانية ، فهو أول من ترجم كثيراً من كتب أرسطو في المنطق والجدل والقياس والمقولات . فكان إداً عظيم الحظ من الثقافة العربية واليونانية والفارسية» (٢) . ويمضى الدكتور طه حسين بعد ذلك في

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦ .

الاستدلال بنماذج من الأفكار الواردة في رسالة «الصحابة» و «الأدب الكبير» لابن المقفع على أنها من آثار الثقافة اليونانية ، كما يوضح المعاني الفارسية في «الأدب الكبير» . ولكنه لا يهتم بتأثير الثقافة الفارسية قدر اهتمامه ببيان الأثر اليوناني فهو يرى « أن مثل هذا الكتاب (أى الأدب الكبير) وكتاب الأدب الصغير واليقيمة كان منتشرأ في العهد اليوناني منذ عصر الاسكندر وترجم للعرب منه الكثير أيام العباسيين» في حين أن المعاني الفارسية لا تكاد تظهر الا في الباب الأول من «الأدب الكبير» وهو الخاص بعلاقة الانسان بالسلطان ، «لأنه لا يذكر الا صفات الملوك المستبدين ، الذين يمحرون ويمكرون الناس بهم . فأخلاق ملوك الفرس والشرق بوجه عام ظاهرة في هذا الباب» . وأما القسم الثاني وهو باب الصديق ففيه ما يوصى به الفلاسفة من الأمة اليونانية من حسن العلاقة بين الناس والتأديب في معاملة الأصدقاء» (١) . بل ان الأكثر من ذلك أن ضعف أسلوب ابن المقفع كما رآه الدكتور طه حسين يشبه ضعف كتاب اليونان في فترة نشأة النثر الفني في أدهم ، يقول ؛ «وليس ابن المقفع بدعأ في هذا ، فكتاب اليونان كانوا على مثل ما كان عليه ابن المقفع من ضعف في التعبير ، لأنهم لم يتعودوا أداء هذه المعاني من قبل ، فليس على ابن المقفع حرج أن تضطرب لغته وتستعصى عليه» (٢) .

والغريب أن يكون ابن المقفع فارسياً متعصباً لثقافته وتراثه الفارسي إلى الحد الذي ألقى به تهمة الزندقة ثم يكون تأثير الثقافة اليونانية أظهر وضوحاً من فارسيتها . فاذا كان ابن المقفع كما يرى طه حسين «يكتب في أول عهد النثر الفني بالوجود» (٣) فكيف يكون النثر العربي في أول عهده عربي النشأة ، وإذا كان ظهور التأثير اليوناني أيضاً عند عبد الحميد على هذا الشكل في القوة الذي رأيناه ، فكيف يكون النثر العربي كذلك عربي النشأة ؟

(١) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

(٣) المرجع السابق ص ٥١ .

وكان الدكتور طه حسين وهو يقرر أن النثر الفنى عربى النشأة يعود
 ويبرهن فى الوقت نفسه على أن نشأته لم تكن عربية ، وأن لليونان على
 وجه الخصوص أثراً بارزاً وللفرس أيضاً أثرهم فى نشأة هذا النثر ، مادام
 النثر لم ينشأ عنده الا فى القرن الثانى وفى عهد عبد الحميد وابن المقفع ، أى
 فى أول عهد النثر الفنى بالوجود . ولكنه يقول بعد كل ذلك : : «الذين
 يزعمون أن الأمة العربية قد أخذت نثرها عن الفرس أو اليونان ،
 ولكن ليس معنى هذا أن هذا النثر نشأ بعيداً عن هؤلاء بل كان عربى النشأة
 ولكنه تأثر هؤلاء» (١) . هو عربى النشأة ، ونشأته غير بعيدة عن هؤلاء ؟
 هذا عن النشأة التى تأخرت إلى أول القرن الثانى ، وأما مرحلة التطور التى
 تلى عصر النشأة فستأتى عند طه حسين فى آخر القرن الثانى «فازدادت المعانى
 التى يتناولها .. ولم يكد يأتى القرن الثالث للهجرة حتى كان النثر قد استقام
 وأصبح ذلولا مطيعاً لأصحابه يؤدون به المعانى المختلفة ، ولم يكد ينشئ
 هذا القرن حتى كان العرب قد استوعبوا كل هذه العلوم فى النثر» (٢) .

نصل من كل ذلك إلى أنه لا يمكن الجمع — كما أراد الدكتور طه حسين
 بين أن يكون النثر الفنى عربى النشأة ، وبين أن تكون هذه النشأة فى أول
 القرن الثانى ، وهناك عبد الحميد وابن المقفع فى أول هذا القرن بأصلهما
 وثقافتهما التى صورها الكاتب على هذا النحو الذى رأيناه . ومهما يكن
 من أمر فان ما نراه الآن هو أن الدكتور طه حسين قد عدل فى (حديث
 الشعر والنثر) عن رأيه الذى رأيناه فى نهاية كتابه (فى الأدب الجاهلى) ،
 وان كان لم يشر إلى ذلك ، وتركنا حتى الآن أمام رأيين متعارضين
 فى موضوع واحد ، فالنثر العربى نشأ فى الجاهلية حيناً ، وكانت نشأته
 فى القرن الثانى حيناً آخر . ولكن أين ذهبت الفجوة الكبيرة بين هذين
 الزمنين : الجاهلية والقرن الثانى ؟ الواقع أنه لم يقفل هذه الفترة ، فقد تحدث
 فى هذه المواضع كذلك عما قد يكون من نثر فنى فى عصر صدر الاسلام

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

حتى نهاية القرن الأول أى فى الفترة الممتدة ما بين الجاهلية والقرن الثانى ،
يقول :

«فى صدر الاسلام ، ما الذى كان يوجد من النثر (طبعاً قوى فن
الخطابة لأسباب الحوار ومحاوله الاقناع ، سواء كان موضوعه الدين
أو السيامة أو الخصومات المختلفة . وبالطبع احتاج المسلمون إلى أن يكتبوا
وكتب النبي رسائل وكتب الخلفاء من بعده ، ولكن هذه الرسائل التى
كانت تكتب كانت مختصرة لا يقصد منها الا مجرد الأداء فى غير تفنن
أو اثاره للجمال فى خاص . ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة جملها
صغيرة توشك أن تكون رموزاً ، ليس فيها هذا التفصيل أو المحاولات الفنية
التى نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ » (١) .

وهذا يتمشى مع رأيه فى الموضوع نفسه أى أن نشأة النثر الفنى كانت
فى القرن الثانى ، فهو يرى أن المحاولات التى حدثت فى القرن الأول من أمثلة
رسائل النبي عليه الصلاة والسلام ورسائل الخلفاء لم تكن فنية ، وانما كانت
لا تتعدى درجة الأداء . ولكنه لم يذكر شيئاً عن حديث الرسول الذى
كان يرى أن من البيان لسحرا ، هل خلا الحديث أيضاً من
الزمن ؟ وإذا كانت بعض رسائل الخلفاء مختصرة لا يقصد بها
حقيقة الا مجرد الأداء ، فهل ينطبق ذلك على جميع هذه الرسائل . ألم تؤثر
المعجزة البيانية على هذه الأساليب . هذا التأثير الذى من شأنه أن يعمل على
على احداث كتابة فنية تنمو وتقوى وتتطوى ويتسع مداها فى عصر انتشار
التدوين الذى شهده عبد الحميد وابن المقفع . هذا فيما يختص بالكتابة ،
أما الخطابة فقد عرض لها الكاتب أيضاً فى النص الأخير من كلامه ، ولكن
يبدو أن عرض آرائه فى الخطابة كما وردت « فى حديث الشعر والنثر »
على آرائه التى وردت « فى الأدب الجاهلى » من قبل يحتاج إلى نقاش آخر

(١) المرجع السابق ص ٢٦ .

سبق أن رأينا أن الدكتور طه حسين يعتقد في «الأدب الجاهلي» أن «الخطابة العربية فن إسلامي خالص» ، وأن (الحياة الاجتماعية قبل الإسلام لم تكن - وإن غضب أنصار القديم - تدعو إلى خطابة قوية ممتازة) ، فلا تصدق إذاً أن قد كانت للعرب في الجاهلية خطابة ممتازة ، إنما استحدثت الخطابة في الإسلام ، استحدثها النبي والخلفاء ، وقويت حين نجحت الخصومة السياسية الحزبية بين المسلمين) .

بما لا شك فيه أن الخطابة قويت حين نجحت الخصومة السياسية بين المسلمين ، ولكن الذي نبهنا هنا منحصر في رأى الكاتب في موضوع النشأة ، ولذلك فإن ما نفهمه من هذا النص الأخير هو أن الخطابة نشأت واستحدثت في الإسلام ، وقد رأينا من قبل ونحن نعرض لرأيه في الخطابة في «الأدب الجاهلي» أيضاً أنه لا ينكر وجود الخطباء في الجاهلية ولكن (خطابهم لم تكن شيئاً ذا غناء) ، ومن هذا نفهم أن هذا القدر من الخطابة الجاهلية لا يمثل دور النشأة ، وإنما هو شيء يشبه التمهيد للنشأة ، لأن النشأة الحقيقية للخطابة العربية عنده إنما كانت في الإسلام . هذا ما رأيناه في (الأدب الجاهلي) ، ولكننا يجب أن ننظر إليه الآن مرة أخرى على ضوء ما جاء في «حديث الشعر والنثر» حيث يقول :

«وإذن فالعصر الجاهلي لم يكن له نثر بالمعنى الذي حددته ، ومع ذلك فقد كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن . هذا النثر هو الخطابة ، وليس من شك - إذا فهمنا حياة العرب الجاهلية - أن ما كان يقع بينها من خصومات كان يحتاج إلى كلام غير منظوم . فقد كان الخطباء والحامون ينطقون بلسان القبائل ، ويحرصون على أن يعجبوا السامعين لا ليقنعوهم فحسب ، بل ليثيروا فيهم لذة فنية ، ومتى وجدت هذه الفكرة فقد وجد الجمال الفني . والخطباء كانوا يقنعون ويحاجون محتسدين في ذلك على خطب السامعين ، ولكن هذه الخطابة لم يرد إلينا منها

شيء نثق به . وربما كان من السهل أن نتصور هذه الخطابة تصوراً مقارناً ليس دقيقاً عندما نقرأ كتب السير وما فيها من خطابة وأحاديث . كل هذه تعطينا فكرة عن النثر الجاهلي» (١) .

ويتحدث الدكتور طه حسين عن تطور النثر في القرن الأول فيقول : «في هذا العصر نستطيع أن نقول : إن النثر قد وجدت له الأسباب التي مكنته من أن يقوى من جهة ، وأن تنشأ له فنون جديدة من جهة أخرى . أما الذي قوى منه فالخطابة التي كانت موجودة في الجاهلية واشتدت أسبابها ودواعيها في الاسلام» (٢) .

نفهم من هذا أن الخطابة العربية في «حديث الشعر والنثر» قد نشأت في الجاهلية ، بل لقد كانت الخطابة الجاهلية خطابة فنية لا تعجب السامع وتمنعه فحسب ، بل تثير فيه لذة فنية ، ولم تكن الخطابة الجاهلية كذلك في «الأدب الجاهلي» كما رأينا . ولقد جاءت الخطابة الجاهلية في «حديث الشعر والنثر» مزدهرة تثير الجلال واللذة الفنية في حين أن خطابة «الأدب الجاهلي» لم تكن شيئاً ذا غناء ، كما كانت منقطعة الصلة بالنزاع القبلي الذي (يدعو إلى الحوار والجدل ولكنه لا يدعو إلى الخطابة) .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إن الدكتور طه حسين يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في «البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر» ، فلا يكتفى بنشأة الخطابة في الجاهلية وإنما يخطو خطوة أخرى على طريق البيان العربي فزى نشأة شيء من النقد في الجاهلية يرعى شأن الخطابة ويوجه مواقف الخطباء ، فيقول :

«إن العرب من نهاية العصر الجاهلي أخذوا يخضعون صناعة الكلام لنقد أولى ، ولكنه في أغاب الأحوال شديد ، لأنهم كانوا يعملون فيه على سلامة

(١) المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

الذوق . ولقد بلغ بهم الأمر أن استكشفوا عيوباً فنية في النظم ، ووضعوا من النصح ما يفيد كلا من الشاعر والخطيب في صناعته ، فهم مثلاً محلزون الشاعر من التورط في عيوب معينة قد تلتحق بالقافية ، ويعرفون كيف يؤخذونه في حالي الغلو والتقصير ، ثم هم يتقدمون إلى الخطباء أن يراعوا مقتضى الحال ، فيجزؤ أو يطيلوا على وفق المقام ، وأن يفتتحوا خطبهم بحمد الله والثناء عليه ، ويوشحوها بأى من الذكر الحكيم . وكتاب (البيان والتبيين) حافل باقتباسات من الشعر والنثر ، كلها تدور حول هذه الصورة الموجزة لأسلوبهم في النقد ، وكلها تصعد إلى أواخر العصر الجاهلي والقرن الأول للهجرة» (١)

لا يهتما في هذا الرأي بطبيعة الحال سوى ما يتصل بالخطابة من ناحية وبالعصر الجاهلي من ناحية أخرى . فالعرب كان لهم من نهاية العصر الجاهلي نقد أولى يفيد الخطيب في صناعته وفي مراعاته لمقتضى الحال ، وإن دل هذا على شيء فانما يدل على رقي الخطابة التي قام عليها هذا النقد ، وإذا كان النقد نفسه نقداً أولياً ، فهذا لا يهني أن الخطابة ضعيفة أو أولية ، لأن مرحلة النقد تتبع مرحلة الانشاء ، وإذا كان النقد قد نشأ على أي وجه من الوجوه ، فليس يعنى هذا سوى أن الخطابة قد قطعت مرحلة من النضج تستتبع وتستوجب نشوء هذا النقد .

— ٤ —

عرض الدكتور طه حسين مرة أخرى لموضوع نشأة النثر في محاضراته بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، وهي المحاضرات التي ضمت إلى كتاب (من تاريخ الأدب العربي - الجزء الثاني) الذي جمعت فيه مجموعة من أبحاثه وقسمت حسب العصور الأدبية المختلفة . (٢) ومهما يكن من أمر فنحن نسمع في إحدى هذه المحاضرات قول الدكتور طه حسين (٣) :

(١) نقد النثر - تمهيد ص ٤ .

(٢) كنا نود لو قدم الدكتور طه حسين الكتاب بمقدمة يوافق فيها على ما نشر له به من محاضراته بقسم اللغة العربية بجامعة القاهرة ، وذلك بالإضافة إلى المقدمة التي كتبها الدكتور شكري فيصل - الجزء الأول - (بيروت ١٩٧٠) ص ٥ - ٧ .

(٣) المحاضرات بتاريخ ٨ - ١١ - ١٩٤١ .

والحقق أن العرب في جاهليتهم لم يكتبوا نثراً فنياً ، والصحيح أيضاً أن العرب في جاهليتهم عرفوا ألواناً من البلاغة في محاوراتهم وخصوصاتهم وما نسميه خطابة وأحاديث» (١) .

فالكاتب هنا يفرق بين الكتابة والخطابة ، فيقرر أن الجاهليين لم يعرفوا الكتابة الفنية ، وإن كان لهم من النثر فن قولي يتمثل في الخطابة وفي غيرها ثم يتابع تطور الكتابة خلال القرن الأول فيرى أن النثر الفني إسلامي ويرى أن كثرة تمرين الكتاب الذين كانوا يكتبون بين يدي النبي وتعودهم «سهل أموراً كثيرة بعد .. فاذا انتباههم يتجه إلى العناية بما يكتبون والعناية الفنية دون غيرها» . (٢) ثم يتابع هذا التطور لدى الكتابة في أيام الخلفاء الراشدين ليخلص من ذلك إلى قوله : « كما نشأت الخطابة حديثاً بين فرد وجماعة ثم تطورت حديثاً مؤثراً فيه فن ومتمعة كذلك نشأت الكتابة حديثاً بين الكاتب والقارئ البعيد .. وكان شاقاً أول الأمر ثم مرن ، وأخذ الكاتب بعد أن تمت له المرونة يقصد إلى أن يلتمس الزينة والفن ، وأن يجدد في كتابته ، وأن يحدث إلى جانب الأداء المادي لذة فنية يكون لها أثرها في تأدية الغرض .. فلم يعد يكتبها الإنسان بمجرد البناء ، بل أصبح يبغى الزخرف والزينة والتسامق والتجديد .. وكذلك الأمر في التصوير وغيره» .

والذي يبدو لنا الآن أن الدكتور طه حسين قد عدل عن رأيه الأول في نشأة النثر الفني في الجاهلية ، وعن رأيه الثاني في نشأته في القرن الثاني الهجري ، وأراد في هذا الرأي الثالث أن يرجع هذه النشأة في العصر الإسلامي الأول . وهو إذ يرى أن الحياة الإسلامية بما أتاحتها للعقل العربي من رقي وثقافة ، قد أنشأت النثر الفني فهو يقصد بذلك الحياة الإسلامية

(١) من تاريخ الأدب العربي - الجزء الثاني - بيروت ١٩٧١ ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٣ .

بعد الفتح (١) . وبذلك تقدمت نشأة النثر الفنى فى الأدب العربى عند الدكتور طه حسين قرناً كاملاً من الزمان قبل القرن الثانى الهجرى ، ولم يقف الأمر عند حد النشأة ، وإنما تعداه إلى لون من ألوان التطور أصاب النثر فى القرن الأول ، فلم يصبح أدب رسائل فحسب بل شمل كذلك النثر القصصى ، وبذلك شهد القرن الأول «وجود نوعين» أو «فئتين من النثر» (٢) .

ويتأكد كذلك انصراف الدكتور طه حسين عن القرن الثانى الذى كان يرى فيه منشأ النثر العربى ، وذلك حين يصل فى عرضه لتطور النثر إلى سقوط الدولة الأموية ، تلك الدولة التى سقطت فى فترة شهدت نمو النثر وتطوره ، وفرق كبير كما رأينا بين مراحل النمو والتطور وبين مرحلة النشأة ، يقول :

«لو فرضنا أن الدولة الأموية لم تسقط وأن أبا مسلم فشل لسبب ما وتأخر سقوط الدولة الأموية خمسين أو عشرين سنة ، فما الذى كنا نلاحظه فى الحياة الأدبية لو حصل هذا ؟ أكان وجد هذا النثر أو لم يكن يوجد ؟ بطبيعة الحال إذا نظرنا إلى التطور الذى نقص أطرافاً منه فسرى أن النثر كان سيستمر فى نموه ، لأن الحسن البصرى كان يدرس فى العراق ثراً قبل سقوط الدولة الأموية ، وكذلك ابن سيرين وغيرهم من الذين يتحدثون فى التاريخ أو يناظرون فى مسائل الدين .. فلو أن الدولة الأموية لم تتغير حول أن مركز الحضارة والخلافة لم ينتقل من الشام إلى العراق لما أثر هذا مجال من الأحوال فى وجود هذا الفن الأدبى الذى نشأ فى الحياة العربية ، واحتضنته هذه الحياة فى تطوره ونموه حتى وصل إلى ما وصل إليه» (٣) .

إذن فالحياة العربية الإسلامية فى القرن الأول قد شهدت نشأة النثر الفنى

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٤ - ٤٦ .

وشهدت كذلك تطوره ونموه ، وأما الفترة التي عاش فيها عبد الحميد وكذلك ابن المقفع في القرن الثاني فلم تكن ذات أثر في النشأة وان كانت ذات أثر في التطور المستمر . يقول الدكتور طه حسين :

إذن فالحياء العربية الاسلامية في القرن الأول قد شهدت نشأة النثر الفني وشهدت كذلك تطوره ونموه ، وأما الفترة التي عاش فيها عبد الحميد وكذلك ابن المقفع في القرن الثاني فلم تكن ذات أثر في النشأة وان كانت ذات أثر في التطور المستمر . يقول الدكتور طه حسن :

«والشيء الواضح أيضاً أن عبد الحميد لم يكن كاتباً للعباسيين ، بل للأمويين ، وقتله العباسيون عند سقوط الدولة . وليس النثر ناشئاً عن سقوط دولة وقيام دولة ، ولم ينشأ لأن قوماً غير عرب تعلموا العربية وأتقنوها . ولكن النثر نشأ لأن أمة بدوية تحضرت ، ولأن طبيعة الحضارة أن يوجد فيها النثر سواء تعلم الفرس العربية أم لا ، وسواء أعرب هؤلاء الفرس أم لا .. فلا بد لهم أن يكتبوا ما داموا تحضروا ، وما دامت الحضارة تقتضى النثر» (١) .

وهنا يعود الدكتور طه حسين إلى موضوع النشأة العربية للنثر ، وقد رأيناها يعرض له من قبل ، فيؤكد في صورة مباشرة وينقضه في صورة غير مباشرة حين يقرن نشأة النثر العربي بالقرن الثاني وتأثير اليونانية في عبد الحميد وابن المقفع ، وتأثير الفارسية أيضاً . أما الآن فالدكتور طه حسين ينفي الأثر الأجنبي بشدة في هذه النشأة ، وان كان هذا بطبيعة الحال لا يعني نفى التأثير الأجنبي في مراحل التطور .. يقول :

«لابد من العدول نهائياً عن التفكير السخيف في أن العرب أخذوا النثر عن الأمم الأجنبية ، فهم لم يأخذوه عن أحد .. بل أنشأته الحياة العربية كما أنشأت هذه الحياة شعرهم كذلك .. فالأمة العربية تأثرت تأثراً

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

لا شك فيه بالأهم المغلوبة لأنها أعرق في الحضارة ، ولكن فرق بين أن تتكون تأثرت بالحضارات ، وبين أن تكون استعارت طبيعة أمة أخرى . وفقاً من فنونها» (١) .

ويعود الدكتور طه حسن هنا - وهو ينفي أثر الحضارات الأجنبية بشكل عام في نشأة النثر العربي - فينص على نفي التأثير الفارسي على وجه الخصوص . أما التأثير اليوناني ، فلا ينص عليه وإنما يشملته النفي في صورته العامة . يقول : «وهنا يظهر الفرق بين أثر اليونان في روما وأثر الفرس في العرب ، فالعرب لم يحتاجوا إلى تقليد النثر الفارسي لأنه غير معروف . ولا الشعر الفارسي لأنه غير موجود ، على حين أن اللاتين الرومان كانت لهم نماذج من النثر والشعر اليونانيين فقلدوها واتخذوا منها اماماً ، فالعرب تأثروا بالحضارات الشرقية ، ولكنهم لم يستعبروا فنناً ما من هذه الفنون» (٢) .

والنتيجة التي يصل إليها الدكتور طه حسين هنا في هذا الموضع هي توقيت نشأة النثر الفني في العصر الإسلامي ، والعصر الإسلامي هو القرن الأول كما رأينا ، إذا كان القرن الأول يمثل فترة طويلة من الزمن ، بخالذي يمكن أن نراه من رأي الدكتور طه حسين أن النشأة كانت في الشطر الأول منه ، وليس معنى هذا أن النشأة قد تحددت في سنوات معينة ، وإنما المقصود أنها كانت في المرحلة الأولى منه ، وأن المراحل التالية قد شهدت خطوات التطور والنمو التي تبعت خطوة النشأة . والجدير بالذكر أن الدكتور طه حسين وإن كان يمزج في حديثه عن النثر بين الخطابة والكتابة في أكثر الأحيان إلا أنه يقتصر موضوع النشأة وتأريخها على الكتابة الفنية وحدها دون الخطابة ، وهذا واضح من قوله :

(١) المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

«وإذا كانت الخطابة قد سلكت طريقها التي لانعرفها، فإن النثر قد سلك طريقاً يخيل إلينا أننا نعرفه .. وسنرى أن العصر العباسي لم ينشئ النثر العربي بل ربما أغناه وقواه ، والنثر العربي الفنى نشأ فى البيئة العربية الخالصة ثم تطور كما تطورت الفنون العربية المختلفة من نثر بسيط جداً يكثر فيه التكرار ، ويقصر عن تأدية الأغراض بدقة إلى نثر ينمو ويسهل ، ويمكن أن تؤدى به الأغراض من غير مشقة ولا عنت ، إلى نثر يقصد به اقناع السامعين والقارئىن . ويمكن أن نتبع هذا النثر منذ هاجر النبي إلى المدينة حتى أوائل القرن الثانى ، فراه يتطور تطوراً طبيعياً لا تكلف فيه ، حتى إذا اشتد الاتصال وثب وثبة كبرى هى التى خيات إلى الباحثين أنه جاء من الشرق لا من بلاد العرب» (١) .

هذا هو عرض القضية الذى يلخص فى الوقت نفسه النتيجة التى وصل إليها الدكتور طه حسين فى هذا الموضوع من مواضع آرائه فى نشأة النثر العربى ، وقد جاءت هنا فى القرن الأول . وهذا القرن يتوسط فترتين ، كانت كل منهما فى بعض الأحيان كما رأينا مهدياً لنشأة النثر العربى ، أما الأولى فهى الجاهلية ، وأما الثانية فهى القرن الثانى .

- ٥ -

لكننا نريد أن نتلمس بعد كل هذا حقيقة الأمر . والذى يبدو لى أن الحقيقة تنضح إذا ما رجعنا إلى القضية فى بساطتها من غير تعقيد . والبساطة تحم أن نأخذ القضية كككل ، وننظر إلى النثر باعتباره نثراً دون فصل بين الخطابة فى جانب والكتابة فى جانب آخر . ذلك أن الخطابة نثر لا ريب فيه ، فلم ينظر إليها القدامى على أنها شىء مستقل ، وكل ما يفرق بينها وبين الكتابة هو الطريقة أو الأداء ، فالأولى قول يقال ، والثانية قول يكتب ، وكثيراً ما تكتب الخطبة فتشبه الرسالة الفنية ، أو تلقى الرسالة

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .

القاء فتشبه الخطبة ، فالرسالة والخطبة نثر ، والفصل بينهما في معرض النثر العربي بوجه عام أمر لا يستلزمه المنطق ، ولا يتفق مع طبيعة الأشياء . ولماذا نذهب بعيداً وأبو تمام يقول :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

ليست هذه صورة خيالية لأبي تمام ، ينسب فيها الخطابة إلى النثر ، وإنما هي الحقيقة التي لا محاز فيها ، أو الواقع الذي لا شك فيه . ذلك أن تقسيم الكلام إلى الشعر وكتابة وخطابة أمر يحمل من التعسف الشيء الكثير ، وإنما الكلام شعر ونثر . وأما أن ينقسم النثر بعد ذلك إلى أقسام فهذا شيء آخر . وفي ذلك يقول صاحب نقد النثر الذي مر بنا منذ قليل .

«واعلم أن سائر العبارة في كلام العرب إما أن يكون منظوماً وإما أن يكون مثنوياً ، والمنظوم هو الشعر ، والمثنو هو الكلام» (١) .

ولما كان الشعر ينقسم أقساماً كان للنثر كذلك أقسامه ، ولذلك يقول : «وليس يخلو المثنو من أن يكون خطابة، أو ترسلاً، أو احتجاجاً ، أو حديثاً ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه» (٢) . ويقول ؛ : «ثم إنه يخص الخطبة والترسل أشياء نحن نذكرها» (٣) . فترى هنا أنه يجمع بين الخطابة والترسل في تناول خصائصهما ، لأن الخطابة نثر ، أو هي قسم منه ، ولكنها ليست قسماً مستقلاً من أقسام الكلام .

وقد عرض الدكتور زكي مبارك لآراء بعض النقاد القدامى في الشعر والنثر ، ومنها رأى أبي هلال العسكري في كتاب الصناعتين - والصناعتان هما الشعر والنثر - وذلك فيما يختص بالفرق بين الخطب والرسائل من حيث كونهما قسمين من أقسام النثر ، فيقول :

(١) نقد النثر ص ٧٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٤ .

«وأبو هلال العسكري أكثر دقة من الثعالبي في الكلام على الشعر والنثر ، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعدوية ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها ، والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة ، في أيسر كلفة ، ولا يتبأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه واحالته إلى الرسائل إلا بتكليف وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلون شعراً إلا بمشقة » . ثم يقول : «وهذا صريح في أن نقاد العرب يفهمون أن الرسائل والخطب فن واحد ، أو فنان متقاربان يقابلهما الشعر . فالكلام ينقسم إلى قسمين : منظوم ومنثور ، والمنثور منه الخطب والرسائل . وقد عرض القلقشندي للتعليق على كلمة أبي هلال في صبح الأعشى - ح ١٦ ص ١١٩ - فقال «إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها ، يحتاج الكتاب إليها في صدور بعض المكاتبات ، وفي المبيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمناشير» . ومن هذا يتبين أن الميسو مرسيه تكلف شططاً حين زعم أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أصول أساسية : هي النظم والنثر والخطب ، ليصح له أن يحكم بأن الجاهليين عرفوا فن الشعر وفن الخطابة ولم يعرفوا فن النثر . والمعقول أن الذي يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة انشاء الرسالة . وقد بقي صدى خطباء الجاهلية لأن الخطب كانت لا تلقى عادة إلا في المواسم أو عند كبريات الحوادث ، أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة إلى قبيلة على أيدي الرسل ، وكانت في الأغلب مما يكتبه المرسلون» (١) .

لا نريد أن نعرض الآن لموضوع الرسائل ، ولكننا نريد أن نوكد ثرية الخطابة ، فإذا كانت الخطابة ثراً ، وكانت الخطابة فناً من فنون الأدب

(١) النثر الفنى في القرن الرابع - الجزء الأول - القاهرة - بدون تاريخ -

التي عرفها الجاهليون ، فهذا يكفي ليكون النثر العربي قد نشأ في العصر الجاهلي ، وقد تبع هذه النشأة على مدى العصور مراحل مختلفة من الرقي والتطور ، ولكن مراحل الرقي كما عرفنا شيء ومرحلة النشأة شيء آخر ، وقد شهد العصر الجاهلي هذه المرحلة بما لا يدع مجالاً للشك ، ويكفي أن نرجع إلى البيان والتبيين لثري ما رواه الجاحظ من تصوير لمكانة الخطباء في الجاهلية وارتفاع هذه المكانة على مكانة الشاعر . يقول :

«قال أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويميب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر» . (١) ويقول أيضاً : «كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج ، لرده مآثرهم عليهم ، وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء ، صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر» (٢) .

وبذلك نربط آخر الكلام بأوله ، فقد عرضنا في أول البحث لعوامل ازدهار الخطابة في الجاهلية وصور ازدهارها ، والآن نرى كيف ارتفعت مكانة الخطيب على الشاعر . فإذا كان الخطيب في هذه المنزلة ، فهذا لا يعني سوى رقي الخطابة ، ورقي الخطابة يوجب وجودها ، ووجودها يثبت نشأة النثر الفني في العصر الجاهلي . وينبغي أن نؤكد كذلك أن ضياع نصوص هذه الخطابة لا ينفي هذه النشأة ولا يؤخرها عن هذا العصر ، فقد أجمعت الآراء - ومنها رأى الدكتور طه حسين - أن هذه النصوص المروية تقدم لنا صوراً من النصوص الأصلية الضائعة . وقد قال الرقاشي

(١) البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون - الطبعة الثالثة - القاهرة ١٣٨٨/١٩٦٨

الجزء الأول ص ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق - الجزء الرابع - ص ٨٣ .

ما تكلمت به العرب من جيد المثنون أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ،
فلم يحفظ من المثنون عشرة ، ولا ضاع من المنظوم عشرة .

ولقد عرف العصر الجاهلي صوراً أخرى من النثر كسجع الكهان
والأمثال والقصص ، ولكننا لا نستند إليها بالدرجة الأولى ، لأن الخطابة
الجاهلية أقوى دلالة على وجود النثر الفني في شكل كافم لتصوير مرحلة
النشأة . وأما القرآن الكريم فهو دليل غير مباشر على نشأة النثر العربي
في الجاهلية ، والدليل المباشر الذي يتمثل في الخطابة أقدر على النهوض
بالدلالة ؛ لأنه يستمد قدرته كما قلنا من إشارته إلى نشأة النثر إشارة مباشرة
من غير واسطة .